الحسين الرياحي

الكلمة الرائعة التي القاها الاستاذ الكبير السيد صدر الدين شرف الدين صاحب جريدة (الساعة) الغراء . في الحفل الكاظمي لسنة ١٣٦٥ هـ

لم تكن السياسة في بدء الاسلام منفصلة عن الدين ، بل لم يكن للسياسة في الاسلام مفهوم كمفهومها المعروف قبل الاسلام وبعد العهد الراشدي . وانما كانت السياسة سياسة الزعامة الاسلامية التي انشاها محمد (ص) انشاءا ، وشد بها أيدي صحابته المنتخبة شداً كان الدليل على ان الالتواء والتحرف ليساطبيعة في ذات السياسة . وانما هما من ارتجال الساسة الذين يعدلون الى الالتواء والتحرف عن الاستقامة والمواجهة بدواع من ضعفهم وضعف حقائقهم عن بلوغ ما يبلغه الساسة الصادقون المستقيمون المواجهون .

وانما يجيء الالتواء والتحرف عند هؤلاء الساسة الزائفين قدرة مصطنعة يتوسلون بها الى سد عجزهم وستر ضعفهم ، ويقيمون منها جسراً للعبور الى غاياتهم واغراضهم الذاتية المقصودة هي بذاتها قبل أن يقصدون بها شيئاً آخر من التربية النوعية ، أو الاصلاح الاجتماعي ، أواقامة الموازين العادلة .

وقد يكون الوزر مقتسما بين الساسة الزائفين ، وبين المسوسين السذج المنقادين ، قد يكون ذلك ، أو هو كائن من غير شك ، لأن السياسة كائن من هذه الكائنات المترابطة التي لا ينفصل بعضها عن بعض ولا يستقل شيء منها بالوجود دون شيء آخر ، وهي مع ذلك شركة بين طرفين يقف الساسة منهما في جانب ويقف المسوسون منهما في الجانب الآخر كلعبة جر الحبل من غير فرق ، نعم لقد فرض أن تكون القوة والعيالة والنشاط في جانب الساسة ، لأن المعروف في هؤلاء أنهم القادة الذين تصدر منهم الاوامر والايعازات ولكن المسوس في انقياده واسلاسه يشارك السائس في متوبات

إمارته وأوزاره عامة ، ويسنده في الخالدين مهما كانت عوامل طاعته واضمحلاله في اوامر السائسين .

وفي الحق أن الغابابات والملكات والفراعنة لم تكن مستعدة للانقياد والطاعة لتمردت - إذن - وفشل الذين يسودون من الجماعات سيادا يرمون بها من أيدي الشهوات أو عن أيدي المصانع على السواء .

وفي حوادث التاريخ قبل النظريات العلمية والاستنتاج العقلي شواهد لامجال فيها للتردد أو الشك ، فالتناحر بين سياسة الصدق والمواجهة وبين سياسة النفاق والتحرف يدلنا على أمرين متلازمين مترتبين :

أولهما : أن الانسان غرشهوان بتملقه النفاق وتغريه الخديعة وان قام في قرارة نفسه ان وسائل هذا النفاق وادوات هذا الاغراء طلاء وتمويه ، ذلك لانه شهوان تخدعه الشهوة في واقع الامر لاهذه الوسائل المطلية المموهة .

ومن هنا نجحت في أكثر الادوار سياط الظلمة واموالهم وعلت التيارات المادية هذا العلو المبين .

وثانيهما : ان المسوس من شعوب الساسة هم اوزار السياسة وإعباؤها الثقال ، يتحطون في مجالاتها الوعرة صخوراً واشواكا خيناً ، وسيوفا ونبالا اخرى ، وهموما واكداراً ثالثة .

ومن هنا كانوا شركاء الساسة احبوا ام كرهوا ، اطاعوا عن طبيعة واقتناع ام عن إغراء وفتنة ، هم شركاء في كل حال وقد دلتنا الاحداث الجسام - احداث المبادئ الفواصل في تاريخ الانسان - على ان انطلاق العصور في غرض من اغراض الحياة لم يجرف العقائد الصلاب ، ولم يطو الرجال الشداد ، بل نتأ في منحدرات هذه العصور رجال شقوا السيل شقاً وقالوا كلمتهم فاذا السيل يغور ، واذا هم بعد السيل ماثلون ، كما تمثل القمم الشواخ رسوخا في المكان وخلوداً في الزمان فكانوا بهذا حجة باقية على معاصريهم ، وكان تمردهم دليلا على ان إنسانيتهم الزاهدة فيما اطمع فيهم ، المطمئنة الى ما اخاف أمثالهم فوق إنسانية اولئك البشر الطامع بالمتاع ، أوالخائف بالاراجيف .

وقد كان لهذه الدروس القوادر أثرها في تثبيت الاقدام ، وخلق البطولات في تاريخ العظائم ، وسجلات المبادئ والتطورات الاصلاحية الكبرى .

وبعد أفاستطيع أن أدخل الحسين في سجل الساسة من غير حرج ولا ضير ؟ وهل ينكر عليّ منكر إذا أضفت الى سيد الشهداء هذا اللون من ألوان الحياة ؟

أما أنا فلا أحرج ولا احب لأحد ان يتحرج مادام محمد - وهو قدوة الحسين - أعظم من ساس الحياة ، وأنشأها بسياسته حياة لو بقيت كما وضعتها يده لكانت جديرة ان تمنعنا بالامن ، وتترفنا بالخيرات الوارفة من العيش الرغيد .

لا حرج ولا ضير في أن نعد الحسين إماما من أئمة السياسة كما هو إمام من أئمة الدين . لا حرج ولا ضير في ذلك مادامت سياسة الصدق والاستقامة هي سياسة الاقوياء من عباقرة الانسان ، ولا حرج في ذلك ولا ضير ما دامت السياسة متصلة بالدين صادرة عنه ، ولا حرج في ذلك ولا ضير مادامت هذه السياسة التي يقع اختيارها على الحسين هي سياسة محمد في دينه الناشيء ورسالته العلوية ، ومن يكون سياسياً في هذه الدولة المحمدية المثلى ان لم يكنه الحسين سداداً في الرأي ، وقوة في البصيرة ، ونفاذاً الى الدخائل ، ووصولا الى اعماق الامور .

لقد كان الحسين سياسياً ، بل كان لابد من سياسته في مثل تلك الفترة التي اختلفت فيها مهاب الرياح ، واهتاجت خلالها أعاصير السياسة الزائفة ، فاعصوصب الشر ، وأوكب الطامعون بمنبر الاسلام يهدفون اليه من كل جانب في غير كفاية ولا سابقة ، ولا نسب قريب أو بعيد ، وفي مثل هذه الحال كان على رجل السياسة الصادقة ان يضع منكبه بين هذه المناكب المتدافعة ، ويعلن عن موقفه هذا النحو من الاعلان الذي يضمن النجاح في كلتا الحالين على نحو ما فعل الحسين (ع) من غير زيادة ولا نقصان .

وأراني - وقد انتهيت الى هذه الخطوة - ملزما بايضاح معنيين يلتبس معناهما عند فئتين من الناس ، وربما مقيت من هذا الالتباس بامتعاض هاتين الفئتين معاً لاعن كلا من هاتين الطبقتين تنظر الى الحسين بعين لا تحاول أن تراه بغيرها ، والحسين بطل لا تسمو اليه عين من حيث سمت إلا عادت ممتلئة بالجمال مبهورة بالنور .

أما اول المعنيين الذين أعنيهما فمعنى السياسة - وقد قلت أن السياسة في زمن البعثة وفي الفترة الاولى بعده النبي كانت ذات معنى لا يتصل بالمعنى الذي نفهمه اليوم أو الذي كانت تفهمه الفلسفة الميكافيلية أو ما يوافقها من عمليات الانحياز والخداع والكذب والحيلة ، وانما كانت السياسة التي نقفها الحسين سياسة الصدق ، وسياسة رجل السلطان والاصلاح في آن واحد ، وأما ثاني المعنيين فمعنى الدين .

واحب قبل ان اقربه وأجلوه ان نوقن بان للدين سياسة بين السياسات ، وبأن سياسة الدين هي السياسة الراجحة في موازين الضمير والمنطق والاريحية والمثالية الانسانية .

ثم أحب ان اقول ! ان الحسين انما سمي لانه رجل دين قبل ان يسمو بشيء آخر دون ذلك ، فاذا لمع من اسم الحسين نور وعبقرية من عبقرياته الرفيعة فانما هو وميض من هذه الشرارة الدينية التي تتلخص بها جوامع عبقرياته .

والاسلام هذا الدين الذي قتل في سبيله الحسين أهل لأن تذهب فيه مثل هذه الاضحية العظيمة الغالية ، لانه دين بنظمه وضماناته ابعد مما تتداعى اليه هذه النظم والضمانات المستحدثة التي تعد وتخلف ، وتقول وتكذب ، وتجتمع وتتفرق على منافعها الخاصة وما ربها الشخصية .

وفي الاسلام اصول هذه النظريات والمقررات التي يتداعى اليها اقطاب الارض لينقذوا بكؤوسها العالم من هذه الحمى المستبحرة الهاذية التي تغلبهم اعراضها كلما تقدموا اليها بعلاج يظنون انه العلاج .

والدين - بعدئذ - لا يدل على رجعية ولا يمنع من تقدم ولا يحجر على فكر او عقل او حرية . بل الدين تقدم وارتقاء وتحرر وانعتاق ، والاسلام من الاديان بصورة خاصة هو ذلك بعينه ، ولكن شوهة في بعض المنتسبين اليه لوت حرف الدين في بعض الاذهان في غير محاكمة ولا تثبت ولا رجوع الى مصادر هذا الدين المترعة

الريا بما تشاء النفس من طمأنينة واستقرار ، ولو اعادوا النظر لرأوه في واقعه ، وكما اراده النبي منهجاً أجب مناهج الحياة وأجداها الى ما نشاء من علم ومعرفة ، ومن تهذيب وتربية ، ومن طمأنينة ودعه ، ومن ايثار وحب ، ومن تعاون وبر ، ومن عدالة ومساواة ، ومن كل مطمح يرجوه طالب الحق ، وطالب الخير ، وطالب الاصلاح .

هكذا كان وهكذا سيظل دستوراً ماديا روحياً بهذا المزاج الرفيع لا ينفصل عن سياسته ولا تنفصل عنه سياسته بل تخرج من اعماقه صريحة صحيحة ، صارمة حازمة .

اما ان الاحداث والمطامع حرفت السياسة وجعلت لها منطقاً دنيوياً أخضع الدين للاهواء والغايات فذلك خروج عنه ، واباء وتمرد كادا يعكسان آيته ويرد انه الى العصبيات الجاهلية ، والشعائر القبلية ، او يجاوز انه — حين يرتقيان بالملك — الى شكل من اشكال الحكم القيصري ، او لون من ألوان الملك الكسروي .

وقد كان الحسين في تلك الفترة يطل هذا الدين ورافع لواء هذه السياسة فلو ذهبت تتقصى الارض كلها لم تجد غيره سيداً للعرب يحرص على هذا الدستور الذي اخذ الدهر من جوانبه فكاد ان يتصدع ، وعلى فوز هذه السياسة التي نالت منها الشبهات فكادت ان تضمحل .

وانى لسياسي ألمعي من ساسة الصدق الاقلاء ان يبلغ من سياسته ما بلغ الحسين السياسي من ترتيبه الاحداث وهي تنشأ في ارحام الغيب كأنه يضعها بيده .

ما كان عصر الحسين خلواً من الخبراء بل كان عصراً محتشداً بالدهاة ورجال الفكر والتجربة ، وكانت أحداث الدولة الطالعة بامنيتها الكبرى تصنع من القادة ما أرهب العالم ورماها بالخوف والخشية من هذه الامة التي أذلت كسرى وقيصر ؛ وعصفت بدول حبك قواها التاريخ .

فهل كان اولئك الدهاة والمفكرون كلهم البا على الحسين لا يمدونه برأي فيما يقدم عليه في هذه المغامرة الفرده في تاريخ الحروب والخصومات ؟

لا ، بل الذي علمنا من سيرة الحسين وتاريخ هذه الفترة ان نفراً غير قليل من ذوي الرأي والامانة ، والاحتياط لسلامة السياسة العليا شاركوا الحسين وبادلوه الرأي واشاروا عليه ان يبقى في الحجاز تارة ، وان يذهب الى اليمن اخرى ، ولئن اشاروا عليه بهذا او بذاك وترددوا في المكان الصالح للمناهضة فانهم اجمعوا على ان الكوفة بلد غادر خوان رغم هذه الاكداس من المواعيد .

ترى أكان هؤلاء متهمين بالنصيحة ؟ أم كانوا قائلي الرأي ؟ ام كان الحسين عليه السلام ساذجا لا يقيم وزناً لهذه الآراء المؤيدة بالمرجحات الملحوظة ؟ أم أن الفكرة كانت متركزة في نفسه تركزاً لا يقبل العدول عنها الى ما يريده المشيرون .

لا لم يكن شيء من هذا وانما كانت خطته . خطة السياسي الذي يسمو عن الآراء ويتقدم في الحوادث ؛ ويقتحم المستقبل فيرى الى النتائج في سجلها المقدر المكتوب ولم تكن الادلة الحسية كافية لاقناع هؤلاء المشيرين بانه على صواب وانهم على خطأ لذلك كان يجيب فيجمل الجواب ، ويلاحظ فيجمل الملاحظة ، ويتكل في بيان ادلته على الحوادث التي عهدها واستعجلها بمعرفته للعواقب المحتومة المبنية على مقدماتها الصحيحة فاذا سأله ابن ابيه محمد — وقد طلب اليه ان يختار اليمن — ألم تعدني النظر فيما سألتك ؟ قال : بلى ، فيقول محمد : فما حداك على الخروج عاجلا ؟ فيقول : قد شاء الله ان يراني قتيلا ؛ فيقول محمد : فما معنى حملك هاته النسوة معك وانت تخرج على مثل هذه الحال ؟ فيقول : قد شاء الله ان يراهن سبايا .

وما نرى في هذا الجواب غير ذلك الاجمال الجميل من سياسته المقدرة المدبرة التي حاكمت الفئة السائدة يومئذ فلم تجد إلا ان يرى شهيداً وترى نساؤه سبايا وذلك هو العلاج الذي لا معدى عنه لمبتغي الاصلاح ؛ ورائدي الخير لامة تكاد تنفصل عن عهد الرسالة على قربها منه واتصالها به .

وله فيما يتصل بذلك كلمة أرسلها الى بني هاشم يقول

شريد الحق !

لسعادة الاستاذ الجليل
حسين علي الأعظمي
استاذ الشريعة
الاسلامية بكلية
الحقوق وقد ألقاها
صبيحة اليوم العاشر
من المحرم سنة ١٣٦٥ هـ

أي دمع نظمته الشعراء ودماء ذرفتها الحسناء
في مصاب مادت الأرض له وله اهتزت من الهول السماء
في مصاب فجع الحق به وجرت من أعين الحق الدماء
وجرى طوفان دمع ودم غرقت في لجتيه الشهداء
من رضيع سابح في دمه وهو معصوم من الاثم بـراء
وأبي ماؤ برديه تـقى قاده للحرب دين وابـاء
وايامى بـتن من غير حمى وثكالى جل فيهن البلاء
ويتامى رُوّعوا في مشهد كل مافيه عويل وبكاء
مشهد يذكره الدهر وفي قلبه منه جروح ولظـاء

* * *

هـاشمي ثار للحـق وقـد خذل الحق وعز النصراء
وجد الدولة نهبـاً ولها من بني سفيان أمسى أمراء
تخذوا الحكم عضوضاً فيهم فكأن الحكم ملك وحباء
كانت الدولة شورى فاذا هي إرث يدعيه الغرباء

فيها : (اما بعد فانه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح) .

اي فتح هذا الذي يدعم به بعد ان نحكم على الملتحقين به بالموت ؟

انه فتح الشهادة التي نصرت الحسين بعد الموت فرفعت الغشاوة عن الحكم الاموي ثم نسفته نسفاً ، وأعلنت عن الحق الذي قضى الحسين في سبيله فعلت كلمة الاسلام واستمرت قواعده العالية .

على ان الحسين حين كان يجمل كلامه او يختصر اجوبته وهو في سبيل هذه الشهادة كان يعلن انه مقتول وانه خارج ليقتل وبهذا كان يجيب الساسة والمفكرين من أهل المشورة قبل ان يشيروا عليه بما يحفظ مهجته او يفضي به الى السلامة ، لان سياسة الصدق التي كان يطلبها الاوحد كانت تفرض عليه الشهادة وما هو محتاج الى غير ذلك لانه لم يكن يطلب زعامة لا ينكرها عليه احد ، ولم يكن يطلب ما لا كان يبذله للحفاة والمحتاجين ، ولم يكن يطلب ملكا دنيوياً هو غني عنه بما انقاد اليه من هذه الزعامة العربية الاسلامية المطلقة ، ولكنه كان يطلب وكانت تطلب له سياسة الصدق

شيئاً واحداً هو ان يموت .

ولم يكن يطلب وتطلب له سياسة الصدق الموت الا لانه الحياة ، حياة هذا الدين العظيم ذلك هو الحسين السياسي الذي اتاح للدنيا ان تعرف الاسلام وتعظمه ، وذلك هو الحسين السياسي الذي وقف للسيل في منحدره المندفع فرده قادراً قوياً غير مستضعف ولا واهن .

سلام الله عليك ابا عبدالله فهب لنا من روحك هذا العظيم شجاعة تتبختر بنا على مهاد التضحية والايثار ، ومضاء يحملنا على اجنحة الايمان والاعتداد فنحن من حيواتنا الادبية والاجتماعية والسياسية في مهاب الريح بل الدنيا كلها تستقبل اليوم ما كنت تستقبله من يزيد وبني سمية والزرقاء .

فتنة وغرور ، وتكالب وما شيء غير المنفعة الخاصة يستدنيه افراد هذا الزمان وجماعاته وشعوبه واقطابه فهب لنا من روحك هذا العظيم شجاعة تتبختر على مهاد التضحية والايثار ومضاء يحملنا على اجنحة الايمان والاعتداد ، وليعد روحك هذا العظيم مرة اخرى لنحيي به من جديد .

صدر الدين